فاعلية السياق الثقافي في العملية التخاطبية -دراسة في ضوء نظرية كرايس-

الكلمة المفتاح :السياق الثقافي

البحث مستل من أطروحة دكتوراه

أ.م. د. خالد سهر محيي
الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب
drkhalidsahar@yahoo.com

انمار إبراهيم احمد
Anmar_53@yahoo.com

الملخص

يحاول البحث الكشف عن أَثر السياق الثقافي في العملية التخاطبية في بُعدها التداولي، الذي يؤكد أَنَّ مفهوم التداولية بشكلٍ عامٍ يعني دراسة الاتصال اللغوي في سياق تخاطبي معين، وهذا السياق يمثل في التداولية مفهومًا إجرائيًا مركزيًا يساعدُ على تحليل الخطاب. إنَّ السياق الثقافي – وكما حددهُ البحث هنا – يشمل الاعتقادات المشتركة بين المتخاطبين، والأفكار، والأعراف المشاعة بينهم، وقد وجد البحثُ أَنَّ عملية التفاعل الحواري القائمة على أساس (مبدأ التعاون) الذي يشترطه (كرايس) في صحة العملية التخاطبية التي يمكن أَنْ تحصل بين المتكلم والمخاطب تستندُ إلى مرجعيات عِدَّة: اجتماعية، وعرفية، وثقافية تحاول تشكيل سياقٍ يمكن أَنْ يكون نصًا مرافقًا يساعدُ في إنتاج المعنى المراد من الحوار وتحديده، وقد حاول البحث وضع اليد على بعض الأساليب البيانية؛ بوصفها أمثلة مهمة وفاعلة في إظهار أَثر السياق الثقافي في تكوين المعنى المراد، وقد تبين للباحث أَنَّ الوصول إلى المعنى في الكناية – مثلاً – يخضع لمبدأ التعاون المبني على العرف الثقافي، وكذا الحال مع الاستعارة، بل المجاز بشكلٍ عامٍ، ويظهر ذلك واضحًا في أثناء عرض الأمثلة التي حاول البحث بسط القول فيها، والله الموفق.

إضاءة

يؤدي السياق الثقافي أثرًا فاعلاً في العملية التخاطبية؛ بوصفهِ أداةً مهمةً تساعدُ في الكشفِ عن مقاصد المتكلم وتوضيح نواياه الظاهرة والخفية؛ بغية إفادة السامع المعنى الذي يتوخاه من الخطاب؛ فالسياق الثقافي يُعَدُّ من أهم العناصر الداخلة في التفاعل التخاطبي؛ بوصفهِ الشروط الاجتماعية التي تؤخذُ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة وهذه الشروط تمثل المعطيات المشتركة بين المرسل والمرسَل إليه، والوضعية الثقافية والنفسية، والتجارب والمعلومات القائمة بينهما(١)، وهذا يعني أنَّ

السياق الثقافي هنا يمثل الخلفية المعرفية الَّتِي هي إحدى ملكات القدرة التواصلية، التي تمثل خزينًا معرفيًا مشتركًا بين المرسِل والمتلقي، يمكن من خلالهِ فهم الخطاب، وفك شفراتهِ، والوصول إلى تفسيرات الخطاب بالاستناد إلى البنية المعرفية الموجودة في الذهن والتعارف عليها من طرفي العملية التخاطبية، وهذا يدل على أنَّ السياق الثقافي يتضمن مجموعة الاعتقادات والمعارف والأفكار السائدة بين الأفراد التي تساعدُ في فهم الخطاب، والتوصل إلى المعنى المراد منه.

البُعد التداولي للسياق الثقافي

يمثل التخاطب في نهاية الأمر تفاعلًا لغويًا، واللغة إنتاج اجتماعي؛ لأَنَّ وضعية التواصل تتحدد عن طريق البعد الاجتماعي الاستعمالي بين طرفي العملية التخاطبية؛ لأَنَّها تمثل حوارًا متبادلاً بين متكلم ومتلقٍ يتوخى الاستماع والإجابة، إنَّ النظرية التخاطبية في بُعدها التواصلي الوظيفي ترتبط بفكرة الاستعمال الاجتماعي للغة؛ مِمَّا يجعل المعنى يتعلق بالاستعمال اللغوي نفسه؛ لتحقيق أغراض معينة من أفراد معينين في ضمن مجتمع معين؛ فاللغة ترتبط بالأنشطة الفعلية للإنسان، وهذه الأنشطة لا يمكن أنْ تتحدد إلاَّ بوصفها تواصلاً مع الذات أو مع الآخرين؛ وعليه فإنَّ صيغ اللغة ومعانيها تظهر في سياقات اجتماعية وهي تتغير باستمرار؛ نتيجة للمتغيرات الاجتماعية والثقافية؛ وبذلك فإنَّ اللغة التي هي أداة التخاطب يتم اكتسابها في السياق الثقافي والاجتماعي، وهذا الاكتساب للغة يُعَدُّ أحد ملامح الانخراط في المجتمع؛ بوصفهِ ميدان التخاطب(٢).

إنَّ دراسة أَثر السياق الثقافي في العملية التخاطبية يأخذ بُعدًا تداوليًا يتعدى حدود التركيب اللغوي للألفاظ ليشمل جوانب أُخرى خارج نصية؛ ((فالتداولية ليست علمًا لغويًا محضًا، ينحصرُ اهتمام الباحثين فيه بالانشغال بالتراكيب اللغوية أو التركيز على الجوانب الدلالية فحسب، بل هي علمُ يهتمُ بدراسة التواصل اللغوي داخل الخطاب، والبحث في طبيعة العلاقة بين الأقوال الخطابية، والأفعال الاجتماعية، ومن ثم التعامل مع الخطاب الإبداعي؛ بوصفهِ تعبيرًا عن تواصل معرفي – اجتماعي في سياق ثقافي))(٣) وبذلك أصبح الهدف من الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معين؛ فالنظرية اللسانية الحديثة صارت تُعنى بأنساق اللغة الطبيعية، وبمختلف أنشطتها الثقافية ووظيفتها الاجتماعية، وهذهِ الأنساق تُصاغ من قواعد متواضع عليها من شأنها أنْ تحدد السلوك اللغوي من خلال استعمال العبارة الكلامية اللفظية في موقف ومقام تواصلي معين(٤)؛ إذ إنَّ

السياق – وَعلى وفق ما يؤكده د. كاظم العزاوي – يشملُ الاعتقادات المشتركة بين المتخاطبين، والأفكار، والأعراف المشاعة بينهم؛ مِمَّا يجعل السياق الثقافي يساعدُ على فهم الخطاب المرتبط بالحياة الاجتماعية أو بثقافة المجتمع الدّينية، أو السياسية، أو الاجتماعية[٥]، واستنادًا إلى ذلك يشير د. سمير الخليل إلى أَنَّ السياق هنا ينوبُ عن التقليد أو العرف، ومن ثم فهو يعيد تدوين النَّص في ضمن الثقافة التي أنتجته؛ وبذلك فإِنَّ عزل السياق هنا يعني عزل العوامل الثقافية التي تُسهم في بناء الخطاب ثقافيًا وحضاريًا[٦].

وهذا يعني أَنَّ العملية التواصلية لا تنطلق من فراغ بل تستندُ إلى ضوابط محددة تخضع لسياقات معينة يحددها طرفا العملية التخاطبية بالاستناد إلى مجموعة من المعارف المشتركة التي من شأنها أنْ تُبقي عملية التخاطب قائمةً وذات جدوى، ولعل ذلك يتماشى مع ما أطلق عَليهِ جرايس بـ (مبدأ التعاون) الذي حده بـ ((ليكن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلبه سياق الحوار، وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه، أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار))[٧]، وقد أشار (د. عبدالهادي الشهري) إلى أَنَّه ((من خلال النظر في هذا المبدأ، وفي قواعدهِ المتفرعة عنه، نلمس أَنَّ للعلاقة بين المتخاطبين دورًا أساسيًا في مراعاة هذه القواعد أو خرقها عند التلفظ بالخطاب والتركيز على المعنى، كما يقصده المرسل، وما ينتجُ عن ذلك من خطابات متنوعة الأشكال والإستراتيجيات))[٨].

وقد أكد (د. طه عبدالرحمن) أَنَّ مبدأ التعاون القائم بين المتكلم والمخاطب يعمل على تحقيق هدف الخطاب، وهذا الهدف قد يكون محددًا من الخطاب قبل الدخول في العملية التخاطبية، أو قد يحصل تحديدهُ في أثناء عملية التخاطب[٩]، على وفق ما هو موجود من العرف الثقافي السائد، الذي يتطلب وجود معارف مشتركة، تمثل الخلفية المعرفية التي يمكن أَنْ تتدخلَ في العمليات الاستدلالية التي يقوم بها المخاطب؛ لتوليد المعنى المستلزم من المعنى الحرفي، وهذه المعارف المشتركة تمثلُ مقدمات ضمنية يستطيع من خلالها المخاطب اكتشاف المعنى من الخطاب، ويمكن توضيح ذلك من خلال الإِجَابَة على السؤال الآتي[١٠]:

– هل تريد فنجانًا من القهوة؟ فهذا السؤال يتضمن إجابات محتملة منها:

أ- لا أحبُ شربَ القهوة.

ب- لا أتناولُ منبهًا قط.

ت- أريد أَنْ أنام بعد ساعتين.

تمثل الإِجَابَة (أ) إجابة مباشرة وحرفية عن السؤال، في حين تمثل الإِجَابَة الثَّانية (ب) والثالثة (ت) إجابة غير مباشرة؛ فهي كما يرى د. كاظم العزاوي لا يمكن فهمها إِلَّا فِي ضوء خلفية معرفية تفيد بأَنَّ القهوة تمثلُ منبهًا من المنبهات، وأَنَّها تمنعُ شاربها من النوم لأكثر من ساعتين، وهذا يعني أَنَّ هاتين المعلومتين يتضمنهما السؤال، وينقلهما إِلى المخاطب بطريقة ضمنية، لكن هذه المعلومات الضمنية لا يمكن التوصل إليها من دون الخلفية المعرفية التي تزود الخطاب بالمعلومات والمعارف المشتركة، ويمكن توضيح ذلك على وفق المخطط الآتي:

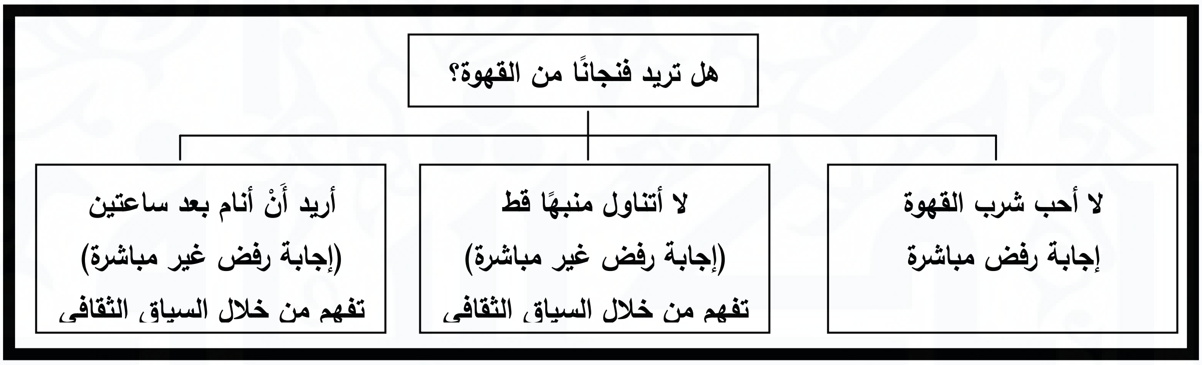

وعليه يمكن القول إِنَّ التفاعل الحواري التعاوني أو (مبدأ التعاون) الذي يشترطه (كرايس) في صحة العملية التخاطبية التي تحصل بين المتكلم والمخاطب يستند إِلى مرجعيات اجتماعية، وعرفية، وثقافية، يتواضعُ عليها المتخاطبون؛ ((فالتواصلُ البشري من هذا المنظور يتميز بخاصية التعاونية))(١١)، التي تقوم على المواضعة والعرف الثقافي.

أَثر السياق الثقافي فِي تداول الأساليب البيانية (الكناية والاستعارة أنموذجًا):

يمكن أَنْ تمثلُ أساليب علم البيان أمثلة مهمة وفاعلة في إظهار أَثر السياق الثقافي في تكوين المعنى المراد؛ لأَنَّ هَذْهِ الأساليب تتشكل عَلَى وفق سياقات ثقافية محددة تتأثر بالعرف الاجتماعي والثقافي السائد الذي يساعد عَلَى تحقيق التواصل التخاطبي بأسلوب تعاوني يعمل عَلَى إيجاد الهدف من الخطاب الذي يخضع إِلى محددات ومواضعات ثقافية واجتماعية يحددها العرف السائد والاستعمال اللّغوي.

أ. الكناية

يخضع الأسلوب الكنائي بشكلٍ كبيرٍ في بناء معناه إِلى السياق الثقافي والعرف الاجتماعي؛ إذ إِنَّ الكناية في المعنى التداولي تمثلُ كلامًا ((استتر المراد منه بالاستعمال،

وإنْ كانت بنيتهُ الخارجية (الصيغة اللغوية) تحملُ معنًى بارزًا، غير أَنَّ الهدفَ من إيراد هذا الضرب من الكلام يُفهمُ من دلالة الحال)) (١٢)، التي تحددها أعراف اجتماعية معينة؛ ف ((التعبير الكنائي لا ينفصلُ في دلالاتهِ ولا في قيمته عن دلالات السياق العام التي تتآزر داخل البناء الفني))(١٣)، وهذا يعني أَنَّ الأسلوب التخاطبي في الكناية يمثلُ لونًا من ألوان ((الإضمار الحواري، الذي يرمي إلى الوقوف على جملة ما في التداول الفعلي؛ فيفسرُ هذه الجُمْلَة ويؤولها وفقًا للسياق والظروف المحيطة بها، ويسترشد في هذا التأويل بالسيكولوجيا الشعبية))(١٤)، التي يمكن أَنْ تمدنا بمعلومات نستطيع من خلالها أَنْ نجد تفسيرات لما نسمع أو نقرأ أكثر بكثير مِمَّا تتضمنه الملفوظات؛ وعليه فلا ينشأ فهم ما يُقال أو يُقرأ أو الكلمات أو الجمل مباشرة، بل ينشأ مِمَّا تسعفنا بِهِ الذاكرة من معلومات مختزنة ومستقرة فِي الأذهان؛ مِمَّا يسهم فِي تحقيق التواصل بين المتخاطبين؛ وبذلك يتحقق الهدف من الحوار القائم على (مبدأ التعاون) الذي نَّص عَليهِ كرايس.

وهذا يعني أَنَّ الوصول إلى المعنى في الكناية يخضع لمبدأ التعاون المبني على العرف الثقافي؛ فالتواصل الذي يدخلُ فيه المتخاطبون في علاقة تخاطبية يستلزم معاني يسعى للوصول إليها، ويبدو إنَّ نقادنا القدماء قد تنبهوا على هذا منذ زمن مبكر؛ فقد جعل عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ-٤٧٤هـ) الكلام على ضربين ((ضربٌ أنت تصلُ منهُ إِلى الغرض بدلالةِ اللفظِ وحده [...] وضربٌ آخر لا تصلُ منه إِلى الغرض بدلالة اللفظِ وحده، ولكن يدلك اللفظُ على معناه الذي يقتضيه موضوعُهُ في اللغة ثم تجدُ لذلك المعنى دلالة ثانية تصلُ بها إِلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية، والاستعارة، والتمثيل))(١٥)؛ وهذا الكلام لعبدالقاهر الجرجاني يمكن أَنْ يكون فيه إشارة إِلى اهتمامه ومنذ زمن مبكر بأثر الاستعمال والتداول فِي تشكيل المعنى، وقد يتضح ذلك من خلال الإشارة إِلى وجود نوعين من المعنى، يسمى الأول: المعنى الحرفي أو (المعنى العام) الذي يُفهم من ظاهر اللفظ اللغوي؛ فهو كما حدده حافظ إسماعيلي ((يتمثل في كل معنى مرتبط مباشرةً بمكونات الجُمْلَة، ويمثلُ الحاصل الدائم والمباشر لتآلف العناصر المكونة لهذه الجُمْلَة)) (١٦)، ويلحظ أَنَّ عملية التخاطب في هذا المستوى يكون المعنى فيها سطحيًا؛ وعليه فلا يمكن الحديث عن عملية تواصلية تأويلية معقدة؛ ((لأَنَّ المعنى في هذه الحدود يكون في السياق الصفر أو خارج السياق، وهو بالتالي خارج الاستعمال أو قبله، ولا حديثَ عن التأويل أو عدمه إِلَّا بعد الاستعمال)) (١٧) القائم على مبدأ التعاون التخاطبي الذي قرره (كرايس).

أمّا المعنى الثاني من الكلام فهو الذي اصطُلح عَليهِ بـ (معنى المعنى)، وهذا المعنى يرتبط بالغرض أو الهدف الذي يرمي إليه المتكلم من كلامهِ، وهو يحتاجُ إلى إعمالِ فكرٍ ومعرفةٍ سابقة بظروف التخاطب المبني على التعاون؛ ((مما يعني أَنَّ إدراكه والتوصل إليه يتوقف على ما يؤطرُ هذا الاستعمال من معارف خلفية تشتغل بشكل مباشر وبصورة غير مرئية))(١٨).

إنَّ الخاصية التعاونية في العملية التخاطبية، كما حددها كرايس، وعَدّها من أسس التخاطب لا يمكن أنْ تتم أو يتحقق الغرض منها من دون مواضعات ومحددات ثقافية واجتماعية يحددُها العرف السائد؛ بغية الوصول إلى الهدف والغاية من الخطاب، وقد ظهر ذلك بشكلٍ واضحٍ بالأسلوبِ الكنائي، ولاسِيَّمْا أَنَّ مصطلح الكناية على وفق المفهوم المتداول في الدراسات النقدية العربية ((واضح المعالم ويرتبط بالتفكير الاجتماعي، والأعراف، وتداعي المعاني وذاكرة اللغة))(١٩)، ومما يدلُ على ذلك أَنَّ مبدأ التعاون الحواري بين المتكلم والمخاطب يستند إلى السياق الثقافي الذي يحقق المدلول الكنائي؛ نتيجة لخرق المتكلم مبدأ الإفادة؛ إذ إنَّ ((المدلول الكنائي المستلزم يتولد مقاميًا بسبب خرق المتكلم لمبدأ الإفادة، فإذا كان المقامُ مقامَ مدحٍ بالكرمِ مثلًا؛ فأيةُ مزيةٍ في أنْ تمتدحَ المرء بأَنَّ لَهُ رمادًا كثيرًا [..] إلَّا إذا كان مقصودُكَ معنًى غيرَ هذا))(٢٠)؛ وذلك مما يؤكدُ على أَنَّ الكناية ((معنية باللياقة، مرتبطة بالعرف الاجتماعي))(٢١)؛ وهذا يعني أَنَّ العرف الثقافي الذي تحاولُ الكناية تشكيلهُ يساعدُ على تحقيق التواصل التخاطبي بأسلوب تعاوني يحقق الهدف من الخطاب؛ وذلك يرتكز على بنيات ثابتة ترتبط لزوميًا بالدال؛ ومما يدلُ على ذلك أَنَّ ((التكنية بالذئب عن شخصٍ ما، يتداعى إلى الذهن كون هذا الشخص يتصفُ بالدهاء والمخاتلة؛ بحكم التداول العرفي لهذهِ المعاني اللازمة للذئب، كما أَنَّ قولنا عن الكريم بأَنَّه (جبانُ الكلبِ أو مهزول الفيصلِ) يحيل على كنايةٍ تستند إلى العرف الاجتماعي؛ لأَنَّ ذلك يعني بِحَسَبِ العرف أَنَّ الكلبَ مكفوف عن النباح؛ لكثرة الضيفان؛ فأعياه النباحُ حتى سكتَ عنه، وهُزال الفصيل يدلُ على الكرمِ عرفًا؛ لأَنَّ أمه ذُبحتْ للضيف فلم يأخذْ كفايته من لبنها؛ مما يدلُ على الكرمِ وحُسنِ الضيافة، كما أَنَّ تقليبَ الكفِ كنايةٌ عن هلاك المال بِحَسَبِ التداول العرفي))(٢٢)، الذي يحتويه مبدأ التعاون القائم في العملية التخاطبية بين المتكلم والمتلقي؛ ((فلا علاقة بين جبن الكلب، وهزال الفصيل، وبين الكرم إلَّا أعراف الناس وثقافتهم التي بها يحيون، كما أَنَّ حالَ المتحسرِ على ما يستحيلُ ردّه ممثلاً بتقليب الكف، تعودُ إلى أعرافِ الناس كذلك))(٢٣)

ب. الاستعارة

إنَّ هذا الفهم لـ (مبدأ التعاون) الذي قرره كرايس، والذي يهدف إلى استمرار التواصل بين المرسِل والمرسَل إليه، مع مراعاة العرف العام الذي تخضع لَهُ التعبيرات؛ بغية تحقيق الفائدة المبتغاة من العملية التخاطبية، يسري على التعبير الاستعاري بشكلٍ كبيرٍ أيضًا؛ وذلك لأنَّ الاستعارة ترتبط باستعمال اللغة على وفق سياقات ثقافية وأعراف اجتماعية معينة؛ وهذا ما أكده (سيرل) الذي يرى أنَّه يتوجب في الاستعارات أنْ تكون متفاهماً ومتعارفاً عليها من طرف المتكلم والمخاطب، وذلك لا يتم إلَّا بفضل ما يشتركان بِهِ من معارف[٢٤]، ولذلك يرى د. عيد بلبع أنَّ السياق الثقافي يمثلُ بشكلٍ عامٍ عنصرًا مهمًا من العناصر التداولية في تفسير الاستعارة، والانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى المقصود من القول[٢٥]؛ واستنادًا إلى ذلك يؤكد د. صابر الحباشة على أنَّه قد ((شاعَ في السياق البلاغي العربي تشبيه الشجاع بالأسد، وجمال العيون، بعيون المها، والقد بالبان، واللمعان بالدينار، والسواد بالليل [...]، وهذهِ القيم الجمالية التي يُعبرُ عنها على هذه الشاكلة في اللسان العربي تجدُ لها تعبيرات مختلفة في سائر الألسنة، وهذهِ التعبيرات كلٌ في لسانهِ هي رصيدٌ مشتركٌ – ضمني – بين متكلمي ذلك اللسان، يضمن تواصله واستمراره، وجود المدونة الأدبية التي تحملُ اللغة الصافية المعيارية التي تجسدُ تلك النماذج الكلية التي يستعيدها الشعراء وكُتَّاب النثر الفني أو يطورونها، وتتحول تلك المستنسخات الشكلية تبعًا للذوق الأدبي العام، ولكيفية تلقي مستعملي تلك اللغة لها ولدرجة استيعابهم إياها)) [٢٦]؛ وبذلك يكون المجاز الذي تُعدُّ الاستعارة من ركائزه المهمة عاملاً مهمًا في العملية التخاطبية التداولية، لكننا نقول هنا أنَّه يجب التنبيه على حقيقة مهمة أشارَ إليها (د. عبدالله الغذامي) مفادها أنَّ المجاز بكل أنواعهِ ومنه الاستعارة التي عَدَّها كوهن (مجاز المجازات)[٢٧] هو قيمة ثقافية أولاً وليس قيمة جمالية فقط، كما هو الشائع في الدراسات البلاغية التي حددت فاعلية المجاز بهذا المفهوم؛ حتى غدا المجازُ في حد ذاتهِ مؤسسةً ذوقيةً مصطلحيةً تتحكم بشروط إنتاج النصوص واستقبالها، على الرغم من أنَّ هناك مقولة مهمة تشيرُ إلى أنَّ اللفظ قبل استعماله ليس حقيقيةً ولا مجازًا؛ فالحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ، وهذا يعني أنَّ الاستعمال والتداول هو الأساس في تحديد الأوصاف في اللغة، وليس من شكٍ في أنَّ الاستعمال والتداول فعل جمعي، وليس فعلاً فرديًا؛ وبذلك فهو يشكل أحد أفعال الثقافة؛ وذلك يستدعي أنْ يكون الاستعمال والتداول أصلاً مهمًا؛ مما يعني أنَّ هناك أنماطًا سلوكية ثقافية تتحرك وتتفاعل،

وبذلك يمكن أَنْ نذهب مع ما يراه د. عبدالله الغذامي أَنَّه من خلال هذا التحرك والتفاعل تنشأ نماذج للقول تسود الخطاب، ومن ثم يأتي الاستعمال والتداول الذي يعني وضع الخطاب في وظيفة، تجعله يَعملُ ويُعملُ بِهِ؛ مما يجعل التعبير المجازي يُوَلَدُ ولادةً ثقافية تخضع لشروط الأنساق الثقافية، التي يمكن تسميتها بالاستعمال، وهذا الاستعمال هو المسمى الإجرائي للفعل الثقافي ذي الطابع العمومي الجمعي[٢٨].

وبذلك يمكن القول إنَّ العلاقة بين معنى الجُمْلَة الحرفي ومعناها الاستعاري ليست من فعل المصادفة، أو الحكم الفردي للمتكلم، بل هي نتيجة لتفكير منهجي مشترك بين المتكلم والمخاطب[٢٩]، من خلال أسلوب تعاوني قائم على سَنَنٍ ثقافي واجتماعي معلوم؛ ((فالاستعمال للاستعارة اللغوية يجري وفق قانون الاتفاق الجمعي على الرموز ومدلولاتها))[٣٠]، ضمن إطار مبدأ التعاون الذي حدده (كرايس)، فلا تعاون بين متكلمٍ ومخاطبٍ إلَّا بوجود سنن ثقافي؛ لأَنَّ فعلَ الإصغاء الذي يقومُ بِهِ المتلقي، بعد توجيه الخطاب إليه من المرسل، لابدَ لَهُ من شيفرة، وهذه الشيفرة أو الكود المتعارف عَليهِ بين طرفي العملية التخاطبية هو الذي يجمعُ بين المتلقي والمخاطب، ويجعلُ التعاونَ في العملية الحوارية قائمًا.

وتتأكد أهمية وجود العرف الثقافي في عملية التخاطب الحواري؛ بوصفهِ عنصرًا مهمًا في كل عملية تخاطبية؛ من خلال التركيز على ما سّماهْ التداوليون المعاصرون بـ (فكرة الإطار القانوني) وهذهِ الفكرة تقوم في النظرية التخاطبية على ((افتراض أَنَّ هناكَ قوانين حوارية ضمنية، أو أَنَّ هناك مبدأ تعاونياً تخاطبياً عرفياً – على الأقل – بين المتكلم والمخاطب؛ حتى ينجح التواصل، أو تتم الفائدة من التخاطب))[٣١].

وبذلك فإنَّ التركيز على أهمية العرف الثقافي في مبدأ التعاون الذي قال بِهِ كرايس يحددُ تداوليًا مسأَلة (افتراض المعرفة المشتركة)، والمعرفة المشتركة في المفهوم التداولي تستلزم معرفة سابقة بين طرفي العملية التخاطبية؛ فـ ((لا يُتصور حوار لغوي ما كيفما كان جنسهُ الخطابي دون المعرفة المشتركة المتبادلة بين المتكلم والمخاطب))[٣٢]؛ وبذلك فإنَّ المعرفة المشتركة بين المتكلم والمخاطب ببعض التعابير هي التي تنتجُ التعاون بين الطرفين؛ لذا يرى الباحث (بنعيسى ازابيط) أَنَّه يمكن الإشارة إلى ((المعاني المستلزمة اجتماعيًا من خلال بعض التعابير اللغوية التي تحيلُ على مكانة اجتماعية ما مثل استعمال (من فضلك) و (من فضلكم) أو غيرهما))[٣٣].

وعلى هذا الأساس يرى (أزاييط) أنَّه يمكن القول ((إنَّ الاستلزامات العرفية والحوارية، وما قد يدخلُ أو لا يدخل فيها من استلزامات تشكلُ المجال الخصب لدراسة المعنى وأنواعهِ))(٣٤)، بالاستناد إِلى العرف الثقافي الذي يسهم فِي عملية التخاطب الحواري؛ بوصفه عنصرًا فاعلاً في العملية التخاطبية، التي تفترض وجود معرفة مشتركة، وهذه المعرفة المشتركة تتضمن معرفة مسبقة بين طرفي العملية التخاطبية، وذلك كله يساعد في الكشف عن المعنى وإظهاره.

الخاتمة

إنَّ العملية التخاطبية في المنظور التداولي الاستعمالي تخضعُ للتقاليد الثقافية، التي يحددها السياق الذي يعمل على توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي من خلال التفاعل والتعاون بين الذات المرسلة والذات المستقبلة؛ بغية تحقيق الهدف من التخاطب أو الحوار، بالاستناد إِلى معطيات ومراجع معرفية مشتركة يستطيع القارئ من خلالها إدراك المعنى من الحوار، وتحقيق (مبدأ التعاون) القائم على السَنَن الثقافي المشترك الذي يتوافر عليه كلٌّ من المتكلم والمخاطب، وهو يمثل نوعًا من التفاهمات المشتركة التي يتم التوصل إليها بوساطة الأعراف الثقافية الَّتِي تحيط بسياق التخاطب.

وقد اتضح ذلك بشكل أكثر وضوحًا فِي بعض الأساليب البيانية مثل الكناية، الَّتِي يخضع المعنى فيها بشكل كبير للسياق الثقافي والعرف الاجتماعي؛ لأَنَّ التعبير الكنائي لا ينفصل فِي بناء دلالاته، أو فِي قيمته المعنوية عن دلالات السياق العام الَّتِي تتشكل داخل البناء الفني؛ لأَنَّ الكناية معنية باللياقة، مرتبطة بالعرف الاجتماعي، وقد اتضح ذلك أَيْضًا فِي أسلوب الاستعارة؛ إذ إِنَّ الاستعارة هي الأخرى ترتبط باستعمالات اللّغة على وفق سياقات ثقافية محددة وأعراف اجتماعية معينة كما هو الحال فِي تشبيه الشجاع بالأسد؛ فذلك خاضعٌ إِلى الرصيد المعرفي والسياق الثقافي المشترك بين متكلمي ذلك اللسان.

Abstract

The Effectiveness of the Cultural Context in the Interlocution Process- A Study Due to Grecian Theory

Keyword: cultural context

A Paper extracted from A Ph.D. Dissertation

Asst. Prof.Dr. Khalid Sahar Muhee
Al-Mustansriyah University , College of Arts ,

Anmar Ibrahim Ahmed

This study attempts to show the effect of the cultural context in the interlocution process pragmatically which asserts that pragmatics generally tackles the linguistic contact in a specific interlocution discourse .No doubt that such pragmatic study reflects a basic practical term which helps in analyzing the discourse .The cultural context – as specified by this study- consists of the mutual beliefs among the speakers, the thoughts ,and the common conventions among them. The study reveals that the interlocutionl contact based on (cooperative principle) suggested by Grice in the process of addressing which exists between the addresser and the addressee typically depended on several backgrounds: social, conventional and cultural which in turn help in composing the meaning of the conversation itself. Moreover, the study sheds more light on some of the rhetorical devices described as important and effective examples in exposing the cultural context in forming the meaning required .It has been noticed that the access to the meaning in metonymy might be submitted to the cooperative principle which based on the cultural convention as well as with metaphor or even imagery in general .Finally, such aspects are illustrated through the examples the study supplied .

الهوامش

(1) J. Dubois, Dictionnaire De Linguistique, Larousse.

نقلاً عن: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء المسرحية التداولية: ٧.

(٢) يُنْظَرُ: ملامح من النظرية الوظيفية (التواصلية) عند ابن جني في كتابه (الخصائص)، (بحث)، د. هيثم محمد مصطفى، منشورات مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، المجلد الثامن، العدد١٥، ٢٠١٤: ١٥٥-١٥٦.

(٣) التداولية وتنوع مرجعيات الخطاب، حدود التواصل بين لسانيات الخطاب والثقافة، (بحث)، د. عبدالفتاح يوسف، ضمن كتاب: المرجعيات في النقد والأدب واللغة، مؤتمر النقد الدولي الثالث عشر، المجلد الأول، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط١، ٢٠١٠: : ٦٧٥.

(٤) يُنْظَرُ: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: ١٨.

(٥) يُنْظَرُ التداولية فِي الفكر النقدي، د. كاظم جاسم منصور العزاوي، (أطروحة دكتوراه): ٣٧.

(٦) يُنْظَرُ: هل ستصبح التداولية المنهج النقدي القادم، (بحث)، د. سمير الخليل، جريدة الأديب، العدد٥٨، ٢٠٠٥: ٢٠.

(7) Paul Grice, Studies in the way of words:24,

نقلاً عن: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية: ٩٦، ونظرية المعنى في فلسفة بول جرايس: ٨٧، والدلالات الاستلزامية في اللّغة العربية والقواعد التخاطبية عند بول جرايس، (بحث)، راضي رشيد، مجلة الفيصل، العدد٢٨٠، يناير/فبراير، ٢٠٠٠: ٤٥، والقواعد التخاطبية عند بول كرايس: ٩٥، والمكون التداولي في النظرية اللسانية العربية، الاستلزام التخاطبي أنموذجًا، (أطروحة دكتوراه): ١١٦.

(٨) استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٩٦-٩٧.

(٩) يُنْظَرُ: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٣٨.

(١٠) يُنْظَرُ: التداولية فِي الفكر النقدي (أطروحة دكتوراه): ٧٥.

(١١) قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني (رسالة ماجستير): ٨٩.

(١٢) الخطاب اللساني العربي هندسة التواصل الإضماري من التجريد الى التوليد: ٤٧/١.

(١٣) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: ١٧٦.

(١٤) المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية، الاستلزام التخاطبي أنموذجًا، (أطروحة دكتوراه): ١٠٨.

(١٥) دلائل الإعجاز: ٢٦٢.

(١٦) تداوليات التأويل (بحث)، حافظ إسماعيلي علوي، ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة: ٢٠٦.

(١٧) المكان نفسه.

(١٨) تداوليات التأويل، (بحث): ٢٠٨.

(١٩) الكناية محاولة لتطوير الإجراء النقدي: ٢٤.

(٢٠) طرق التضمين الدلالي والتداولي في اللغة العربية وآليات الاستدلال، (أطروحة دكتوراه): ٥١٥/٥.

(٢١) الكناية، (بحث)، محمد جابر فياض، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الأول، العدد٣٧، ١٩٨٦: ٢٠٤.

(٢٢) فاعلية الكناية في النقد المعاصر: ١٤٧.

(٢٣) الأسس السيميائية لعلم البيان العربي (بحث): ٣٨.

(٢٤) يُنْظَرُ: المعرفة والتواصل عن آليات النسق الاستعاري: ١٤.

(٢٥) يُنْظَرُ: الرؤية التداولية للاستعارة، (بحث)، عيد بلبع، مجلة علامات، العدد٢٣، مكناس، المغرب، ٢٠٠٤: ١٠٢.

(٢٦) صور المعاني بين أوستين والجرجاني، (بحث)، صابر الحباشة، مجلة أفق تونس، السنة الرابعة، العدد٤٦، تموز، ٢٠٠٤: ٤٥.

(٢٧) يُنْظَرُ: بنية اللّغة الشعرية: ١٦.

(٢٨) يُنْظَرُ: النقد الثقافي: ٦٧.

(٢٩) يُنْظَرُ: قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني (رسالة ماجستير): ١١٢.

(٣٠) علم الدلالة العربية: ٣٩١.

(٣١) الخطاب اللساني العربي هندسة التواصل الإضماري من التجريد الى التوليد: ٢/٢٢٦.

(٣٢) المصدر نفسه، ٢/٣٢٨.

(٣٣) الخطاب اللساني العربي هندسة التواصل الإضماري من التجريد الى التوليد: ٢/٣٤٥.

(٣٤) المصدر نفسه.

المصادر والمراجع

- استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبدالهادي ابن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- الأسس السيميائية لعلم البيان العربي، إيقونية الصور المجازية (بحث)، د.محمد فكري الجزار، مجلة علوم إنسانية، العدد٣٥، خريف، ٢٠٠٧م.
- بُنية اللّغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، ط١، ١٩٨٦م.
- التداوليات، علم استعمال اللّغة، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
- الخطاب اللساني العربي – هندسة التواصل الاضماري (من التجريد إلى التوليد)، ثلاثة أجزاء، د. بنعيسى عسو أزاييط، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط١، ٢٠١٢م.
- الرؤية التداولية للاستعارة، عيد بلبع، مجلة علامات، مكناس – المغرب، العدد٢٣، ٢٠٠٥م.
- صور المعاني بين أوستن والجرجاني، صابر الحباشة، مجلة أفق تونس، السنة الرابعة، العدد٤٦، تموز، ٢٠٠٤م.
- فاعلية الكناية في النقد المعاصر، أَنمار إبراهيم أحمد، مطبعة جامعة ديالى، ط١، ٢٠١٢م.
- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د. رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٨٨م.

- قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني (رسالة ماجستير)، تقبايث حامدة، قسم اللّغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة معمري تيزي وزو، إشراف: د. ذهبية حمو الحاج، ٢٠١٢م.
- الكناية محاولة لتطوير الإجراء النقدي، د. إياد عبدالودود الحمداني، مطبعة جامعة ديالى، ط٢، ٢٠١١م.
- الكناية، محمد جابر فياض (بحث)، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الأول، العدد٣٧، ١٩٨٦م.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.
- المرجعيات في النقد والأدب واللغة، مؤتمر النقد الدولي الثالث عشر، من ٢٧-٢٩ تموز ٢٠١٠م، مجلدان، إشراف وتحرير: أ.د. ماجد الجعافرة و د. أمجد طلافحة، جامعة اليرموك، إربد – الأردن، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
- المعرفة والتواصل عن آليات النسق الاستعاري، أحمد العاقد، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية، ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجًا (أطروحة دكتوراه)، ليلى كادة، قسم اللّغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر – باتنة، إشراف: أ.د. بلقاسم دفة، ٢٠١٢.
- ملامح من النظرية الوظيفية (التواصلية) عند ابن جني في كتابه (الخصائص)، (بحث) د. هيثم محمد مصطفى، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، المجلد الثامن، العدد١٥، ٢٠١٤م.
- النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط٢، ٢٠٠١م.